

الفائدة رقم : (27) - {من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ومن سكت فلم يقل مخلوق ولا غير مخلوق فهو جهمي} - الشيخ د. ربيع بن هادي المدخلي

قال الإمام البربهاري - رحمه الله - : (واعلم أن من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، ومن سكت فلم يقل مخلوق ولا غير مخلوق فهو جهمي هكذا قال أحمد بن حنبل) - رحمه الله -، يعني في أيام المحن، وفتنة الجهمية، وتسلطهم على أهل السنة والجهمية من أبرز ضلالاتهم تعطيل الصفات، وإنكار علو الله وقولهم: إن القرآن مخلوق، وإن الله لم يتكلم، ونشأ أناس ينتسبون إلى السنة يقولون: لفظي بالقرآن مخلوق، وقد يكون هذا من دس الجهمية على بعض المنتسبين إلى السنة، فقال بعض الناس: لفظي بالقرآن مخلوق، ومنهم الحسين بن علي الكرابيسي، فبدع أحمد من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، لماذا؟، حتى لو كان قصده صحيحاً، فإنه ليس له أن يقول ذلك؛ لأن كلمة (لفظ) تحتل أن يراد بها الملفوظ به وهو القرآن، وتحتل أن يكون المراد به لفظ القارئ، الذي هو كلامه، وقوله، ومنطقه، فلما كان هذا اللفظ محتملاً لهذين المعنيين ووسيلة إلى اتخاذه سبباً إلى القول بأن القرآن مخلوق؛ لأنه إذا كان أحد احتماليه هو الملفوظ به وهو القرآن فإنه لا شك لو قصد هذا لكان جهميّاً، إذا كان يقصد الملفوظ يكون جهميّاً فعلاً، والجهمي - عرفتم - كفره السلف، فإن كان قصده المعنى الباطل فهو تجهم، وإن كان يقصد المعنى الصحيح فهو مبتدع؛ لأن قوله هذا يتذرع به أهل الأهواء إلى القول بأن القرآن مخلوق، فأحمد - لفقهم ونفاذ بصيرته وحمايته للسنة - بدع من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق؛ لأنه يطرق لأهل البدع أو الجهمية أن يقولوا القرآن مخلوق، أو يطرق لهم أن يتحايلوا بهذا اللفظ ليصلوا إلى مرادهم من هذا اللفظ وهو لفظي بالقرآن مخلوق، إلى مرادهم وهو أن القرآن مخلوق، فلما كان هذا اللفظ ذريعة يؤدي إلى القول بخلق القرآن، بدع أحمد وشدد النكير على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، يعني هو وسيلة، لفظي بالقرآن مخلوق وسيلة إلى القول بخلق القرآن، لماذا؟، لأن لفظي تحتل المصدر، ويحتل الملفوظ به، وهو القرآن، لفظ مصدر يأتي الثالث في تصريف الفعل أليس كذلك؟، ويحتل أن يراد به الملفوظ، قولي بمعنى مقولي، لفظي بمعنى ملفوظي، فلما كان يحتل أن يكون القائل قاصداً به القرآن الذي يُتلفظ به، ويحتل المعنى الآخر الذي هو المصدر، لفظي: لفظ يلفظ لفظاً، لما كان يحتل هذا وهذا وكان هذا الاحتمال يطرق لأهل البدع أن يتوسلوا به إلى القول بأن القرآن مخلوق، حسم الأمر الإمام أحمد، وشدد النكير على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق تقول القرآن كلام الله غير مخلوق إذا كنت صادقاً، من أهل السنة والجماعة، وتنكر على الجهمية، وعلى أهل الضلال القول بأن القرآن مخلوق قل القرآن كلام الله غير مخلوق، ولا تلف وتدور ما داعي لهذا القول لا داعي له إلا التطريق إلى الفتن، وإلى القول بخلق القرآن، ولهذا شدد الإمام أحمد وأهل الحديث في زمانه على من يقول ذلك، وافتعل بعض الجهمية مكيدة للإمام البخاري ليضرب أهل السنة بعضهم ببعض، فأشاع عن الإمام البخاري أنه قال: لفظي بالقرآن مخلوق، بل البخاري يكفر من يقول: لفظي بالقرآن مخلوق، ويشدد

في ذلك، لكن كادوه في هذا ، وانطلت هذه المكيدة على بعض أهل السنة ومنهم الإمام محمد بن يحيى الذهلي شيخ البخاري - رحمه الله -، وتلاميذه، ولكن كشفت هذه المكيدة فيما بعد لأهل السنة، وعرفوا منزلة البخاري - رحمه الله -، وعرفوا براءته، وتحدث عن هذه المسألة في كتابه خلق أفعال العباد، ونُقل عنه كما ذكر الذهبي في "السير"، أنه من يقول : لفظي بالقرآن مخلوق كافر؛ لأنه ذريعة إلى التجهم، فعرفوا براءة البخاري من هذه التهمة التي كاده بها أهل البدع، وقصدوا بذلك تفريق أهل السنة، وضرب بعضهم ببعض ، كما يجري مثل هذه المكاييد في كل زمان ومكان وإلى يومنا هذا ، قال: (ومن سكت فلم يقل مخلوق ولا غير مخلوق فهو جهمي)، يعني يقول: أنا متوقف، لا أقدر أن أقول: القرآن مخلوق، ولا غير مخلوق، هذا المراد به سكت وهو التوقف، عندما يسأل ما رأيك بالقرآن؟، يقول ما أقدر أن أقول: إنه مخلوق، ولا غير مخلوق نقول هذا جهمي، يعني هذا شك، لا بد من اليقين الصريح بأن القرآن كلام الله غير مخلوق أما أن تتلاعب وتتحايل تقول : ما أدري مخلوق أو غير مخلوق، فهذا شك وتشكيك في كلام الله، والقرآن واضح في أنه كلام الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: 6] ، الله يتكلم : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء : 164]، هذا بالتأكيد الذي يرفع احتمال المجاز، والله يتكلم متى شاء، وإذا شاء، كلم الملائكة، وكلم موسى، وكلم آدم وحواء ومحمداً، وكلم جبريل، وأنزل عليه الوحي للأنبياء جميعاً ، كلمه بالوحي، ويتكلم : (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) [يس: 82]، (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) [الكهف: 109] والقرآن والكتب المنزلة على الأنبياء من كلامه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فما الداعي إلى التوقف في القرآن، أنت لا تؤمن بهذه الآيات الصاعدة بأن الله تكلم، ويتكلم متى شاء سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، يتكلم بالكلام الشرعي، والكلام الكوني القدري: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾، هذا معنى قوله: (ومن سكت فلم يقل مخلوق ولا غير مخلوق فهو جهمي) ، نعم، إذ لا بد من الجزم، لا بد من الاستيقان بأن هذا القرآن كلام الله تكلم به سمعه جبريل من رب العالمين وبلغه محمداً ، (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195) [الشعراء ١٩٣ - ١٩٥]، ومن أوضح الأدلة بعد هذه الأدلة أن الله تحدى به الجن والإنس أن يأتيوا بمثل كلامه، فقال: ﴿قُلْ لَّيِّنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (88)﴾ [الإسراء: 88]، هذا من أكبر الآيات وأوضحها على أن هذا القرآن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وأن محمداً رسول الله حقاً، أوحى الله إليه هذا القرآن، فلا محمد، ولا غيره، ولا الجن والإنس إذا اجتمعوا بما فيهم الأنبياء، حتى الملائكة والإنس لا يستطيعون أن يأتيوا بمثل هذا القرآن ولا بعشر سور من مثله، ولا حتى بسورة من مثله؛ لأنه كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، تحدى به الكفار، وغيرهم من المخلوقات (عون الباري ج2ص119).